.....

فنقولُ: هذه المَوْجُوداتُ في الآخِرَةِ مَوْجُودٌ نَظِيرُها في الدُّنيا في الاسمِ فقط، أو في التَّسْمِيَةِ فقط؛ ففي الدُّنيا ذَهَبٌ وفي الجَنَّةِ ذَهَبٌ، وفي الدُّنيا عَسَلٌ وفي الجنَّةِ عَسَلٌ، وفي الدُّنيا فاكِهَةٌ وفي الجنَّة فاكِهَةٌ، وفي الدُّنيا نَخْلٌ وفي الجنَّة نَخْلٌ، وفي الدُّنيا رُمَّان وفي الجنَّة رُمَّان، وهَل هَذِه الأشياء الَّتِي اتَّفَقَتْ في أصلِ المعْنَى هل يَلْزَمُ أن تَتماثَلَ في حقِيقَتِهِ أم لا يَلْزَمُ؟

والجوابُ: لا يلزمُ، ولا شكَّ أن مَا في الآخِرَةِ لا يمكن أن يكونَ مِثْلَ مَا في الدُّنيا، وقد قَالَ الله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٧]، وفي الحدِيثِ القُدْسِيِّ أن اللهَ تعالى يقول: «**أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**»[1].

إذنِ الأسْماءُ واحِدَةٌ، والحقائقُ غيرُ الحقائقِ، فإذا جازَ أن تَتوافَقَ المَخْلُوقاتُ في الأسْماءِ مع الاختلافِ في الحقيقَةِ فكذَلِك فيما بينَ الخَالِقِ والمَخْلُوق أبيْنُ وأظهَرُ، فإذا قُلْنَا للخالِقِ رَحْمَةٌ وللمَخلوقِ رَحْمَةٌ، وللخَالِقِ حِكْمَةٌ وللمخلوقِ حِكْمةٌ، وللخالق سَمْعٌ وللمخلوق سَمْعٌ.

فهل يلْزَمُ من ذَلِك أن يكونا متماثِلَيْنِ؟

والجوابُ: لا يلْزَمُ من التماثُلِ في الاسمِ أن يتماثَلا في الحقيقَةِ، فإذا جازَ التَّبايُنُ بينَ المَخْلُوقاتِ المتَّفِقَةِ في الأسْماءِ جاز التباينُ في حَقَائِقِها، فالتَّباينُ فيما بين الخَالِقِ والمَخْلُوقِ من باب أوْلى.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم (٣٠٧٢)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٤).

وَقَدْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَيْسَ فِي الدُّنْيَا شَيْءٌ مِمَّا فِي الجَنَّةِ إِلَّا الْأَسْمَاءُ»[1].

وَإِذَا كَانَتْ تِلْكَ الحَقَائِقُ الَّتِي أَخْبَرَ اللهُ عَنْهَا هِيَ مُوَافِقَةٌ فِي الْأَسْمَاءِ لِلْحَقَائِقِ المَوْجُودَةِ فِي الدُّنْيَا وَلَيْسَتْ مُمَاثِلَةً لَـهَا بَلْ بَيْنَهُمَا مِن التَّبَايُنِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ تعالى فَالخَالِقُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْظَمُ مُبَايَنَةً لِلْمَخْلُوقَاتِ مِنْهُ مُبَايَنَةَ المَخْلُوقِ لِلْمَخْلُوقِ، وَمُبَايَنَتُهُ لِمَخْلُوقَاتِهِ أَعْظَمُ مِنْ مُبَايَنَةِ مَوْجُودِ الْآخِرَةِ لِمَوْجُودِ الدُّنْيَا؛ إِذِ المَخْلُوقُ أَقْرَبُ إِلَى المَخْلُوقِ المُوَافِقِ لَهُ فِي الِاسْمِ مِنَ الخَالِقِ إِلَى المَخْلُوقِ، وَهَذَا بَيِّنٌ وَاضِحٌ.

وَلِهَذَا افْتَرَقَ النَّاسُ فِي هَذَا المَقَامِ ثَلَاثَ فِرَقٍ:

فَالسَّلَفُ وَالْأَئِمَّةُ وَأَتْبَاعُهُمْ آمَنُوا بِمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنِ الْيَوْمِ الْآخِرِ مَعَ عِلْمِهِمْ بِالْمُبَايَنَةِ الَّتِي بَيْنَ مَا فِي الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَنَّ مُبَايَنَةَ اللهِ لِخَلْقِهِ أَعْظَمُ[1].

ثم ذكرَ المُؤلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ أقسامَ النَّاس بالنِّسْبَةِ لما يتَعَلَّقُ باللهِ من الأسْماءِ والصِّفَاتِ، و لما يتعلق بهذه الأمورِ في الآخِرَةِ فقَالَ:

[١] «وَلِهَذَا افْتَرَقَ النَّاسُ فِي هَذَا المَقَامِ ثَلَاثَ فِرَقٍ:

فَالسَّلَفُ وَالْأَئِمَّةُ وَأَتْبَاعُهُمْ آمَنُوا بِمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنِ الْيَوْمِ الْآخِرِ مَعَ عِلْمِهِمْ بِالْمُبَايَنَةِ الَّتِي بَيْنَ مَا فِي الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَنَّ مُبَايَنَةَ اللهِ لِخَلْقِهِ أَعْظَمُ»، فالسَّلَفُ والأئمةُ آمنوا بأنَّ الأمْرَينِ على الحَقِيقَة: مَا أخبَرَ اللهُ به عن نفسِه، وما أخبر به عَنِ الآخِـرَةِ؛ أن ذَلِك كلَّـهُ حـقٌّ، وعلى حَقِيقَتِهِ، لكـن مع التَّباينِ بين مَا في الدُّنيا ومَا في

---

(١) أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في صفة الجنة (١/ ١٤٧).

وَالْفَرِيقُ الثَّانِي: الَّذِينَ أَثْبَتُوا مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَنَفَوْا كَثِيرًا مِمَّا أَخْبَرَ بِهِ مِنَ الصِّفَاتِ، مِثْلُ طَوَائِفَ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ[١].

الآخرة، وبين مَا للمخلوقِ وما للخالقِ، فعقِيدَتُنَا: نؤمِنُ أنَّ مَا في الآخِرَةِ وما في الدُّنيا مما يُماثِلُه في الاسم هو الحقُّ، ونؤمِنُ بأن مَا وصَفَ اللهُ به نفسَه وما أخبرَ به عنها فهو الحقُّ، وما للإنسانِ من ذلِكَ فهو حَقٌّ أيضًا، ولكنَّنَا نؤمِنُ أيضًا بالفَرْقِ العظيمِ بين هذا وهذا.

[١] قوله: «**وَالْفَرِيقُ الثَّانِي: الَّذِينَ أَثْبَتُوا مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَنَفَوْا كَثِيرًا مِمَّا أَخْبَرَ بِهِ مِنَ الصِّفَاتِ، مِثْلُ طَوَائِفَ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ**» الأَشْعَرِيَّة يقُولُونَ: مَا أخبرَ اللهُ به مِنَ الثوابِ والعِقابِ هذا حقٌّ، فَفِي الدُّنيا نارٌ، وفي الآخرة نارٌ، وفي الدُّنيا فاكِهَةٌ ونخْلٌ ورُمَّانٌ وعَسَلٌ وماءٌ وذهَبٌ وفِضَّةٌ، وفي الجنَّةِ كذَلِك، لكنَّ هؤُلاءِ الأَشْعَرِيّة وأهلَ الكلامِ الَّذين أشارَ إليهم المُؤلِّف يؤمِنُونَ بأن ذَلِك حقٌّ في هذا وفي هذا، وأنهما لا يتَماثَلانِ.

لكن مَا أخبرَ اللهُ به عن نفْسِه ينْفُون كثيرًا مِنه، ولهذا قَالَ: «**نَفَوْا كَثِيرًا مِمَّا أَخْبَرَ بِهِ مِنَ الصِّفَاتِ**»، فنَفَوْا الحِكمَةَ -كما سبَقَ- والرَّحْمَةَ والعِزَّةَ و«كثيرًا» -بل نفوا أكثرَ صِفَاتِ الله، ولم يُثْبِتُوا من الصِّفَاتِ سِوى سبعِ صِفَاتٍ، هؤُلاءِ أخْطَأوا في شيءٍ وأصابُوا في شيءٍ، فأصابوا فيما أثْبَتُوه من الثوابِ والعِقابِ في الآخِرَةِ، وأنه حقٌّ على حقيقَتِهِ، وأنه لا يُماثِلُ مَا في الدُّنيا، أخْطَأوا في نفْيِهِمْ مَا نَفَوا من صِفَاتِ الله، والواجبُ عليهم إذا أقَرُّوا بذلك أن يُقِرُّوا بهذا أيضًا؛ لأنَّ البَابَينِ واحدٌ، بل المفارَقَةُ بين الخَالِق والمَخْلُوقِ أعظمُ من المفارَقَةِ بين المَخْلُوقات بعضها مع بعض؛ لأنَّ التَّشابُه بين المَخْلُوقِ والمَخْلُوقِ أقربُ من التشابُهِ بينَ الخَالِق والمَخْلُوق.

وَالْفَرِيقُ الثَّالِثُ: نَفَوْا هَذَا وَهَذَا كَالْقَرَامِطَةِ وَالْبَاطِنِيَّةِ وَالْفَلَاسِفَةِ أَتْبَاعِ الْمَشَّائِينَ وَنَحْوِهِمْ مِنَ الْمَلَاحِدَةِ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ حَقَائِقَ مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ، وَعَنِ الْيَوْمِ الْآخِرِ[١].

ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَجْعَلُونَ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ مِنْ هَذَا الْبَابِ، فَيَجْعَلُونَ الشَّرَائِعَ الْمَأْمُورَ بِهَا، وَالْمَحْظُورَاتِ الْمَنْهِيَّ عَنْهَا لَهَا تَأْوِيلَاتٌ بَاطِنَةٌ تُخَالِفُ مَا يَعْرِفُهُ الْمُسْلِمُونَ مِنْهَا.

---

[١] «**وَالْفَرِيقُ الثَّالِثُ: نَفَوْا هَذَا وَهَذَا**»، وكيف نَفَوْا هذا وهذا؟ قالُوا: لا حقيقةَ للجَنَّةِ ولا مَا فيها من النَّعِيمِ، ولا حقيقةَ لأسْماءِ اللهِ وصِفاتِه، كلُّ هذا لَيْسَ له أصلٌ ولا حَقِيقةٌ، فإذا الرُّسلُ أخْبَرَتْ بالجَنَّةِ والنَّارِ والوعْدِ والوعيدِ قَالَ: نَعَمْ، هذا المقصودُ به إصلاحُ الخَلْقِ.

أي: كَذَبُوا على الخلقِ لأجلِ المصْلَحَةِ؛ لأنَّ الخَلْقَ إذا لم يُقَلْ لهم: إنَّ هُناك نارًا يعاقَبُ بها مَنْ خالَفَ، وجنَّةً يُثابُ بها مَن وَافقَ فإنهم لا ينْصَلِحُونَ.

إذا لم يُخَوَّفُوا ولم يُرَغَّبوا مَا رَغِبُوا ولا خافُوا، قالوا: فالرُّسلُ كَذَبُوا على النَّاسِ للمصْلَحَةِ، وهذا كذِبٌ منْهم -والعياذُ بالله-؛ يعنِي: الرُّسُل تعْلَمُ بأن مَا أخْبَرَتْ به عن اليومِ الآخِرِ لا حقيقةَ له، فهؤُلاءِ نَفَوْا حقيقَةَ مَا أخبرَ اللهُ به عن نفسِه، ونَفَوْا حقيقةَ مَا أخبرَ الله به عنِ اليومِ الآخِرِ، وقالُوا: كُلُّ ذلكَ لَيْسَ لَهُ أصلٌ ولَيْسَ له حَقِيقة.

قوله: «**وَنَحْوِهِمْ مِنَ الْمَلَاحِدَةِ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ حَقَائِقَ مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ، وَعَنِ الْيَوْمِ الْآخِرِ**» يقُولُونَ: هذا كُلُّه ليس له حَقِيقَةٌ إطلاقًا، وإنما جاءتْ به الرُّسلُ لأجلِ التَّمْويهِ على النَّاس وإصلاحِ طُرقِهِمْ.

كَمَا يَتَأَوَّلُونَ مِنَ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ وَصِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ وَحَجِّ الْبَيْتِ فَيَقُولُونَ: إِنَّ الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ: مَعْرِفَةُ أَسْرَارِهِمْ[١].

وَإِنَّ صِيَامَ رَمَضَانَ: كِتْمَانُ أَسْرَارِهِمْ[٢].

وَإِنَّ حَجَّ الْبَيْتِ: السَّفَرُ إِلَى شُيُوخِهِمْ[٣].

وَنَحْوُ ذَلِكَ مِن التَّأْوِيلَاتِ الَّتِي يُعْلَمُ بِالِاضْطِرَارِ أَنَّهَا كَذِبٌ وَافْتِرَاءٌ عَلَى الرُّسُلِ -صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ-، وَتَحْرِيفٌ لِكَلَامِ اللهِ وَرَسُولِهِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَإِلْحَادٌ فِي آيَاتِ اللهِ.

---

[١] قوله: «كَمَا يَتَأَوَّلُونَ مِنَ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ وَصِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ وَحَجِّ الْبَيْتِ فَيَقُولُونَ: إِنَّ الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ: مَعْرِفَةُ أَسْرَارِهِمْ» يقُولُونَ: ليسَ المُرادُ بالصَّلواتِ أن تَرْكعَ وتسْجُدَ، ولكنْ أن تَعْرِفَ أسْرارَهُم الَّتِي عنْدَهم؛ لأَنَّهُم هم باطِنِيَّةٌ يرونَ أن الدِّين له باطِنٌ وظاهِرٌ؛ فالظَّاهِرُ لعوامِّ النَّاسِ والباطِنُ لخواصِّهم، وهذه الطائفَةُ لا تُصَلِّي للهِ مستَقْبَلةً القِبلَةَ في اليومِ خمسَ مرَّاتٍ.

[٢] قوله: «وَإِنَّ صِيَامَ رَمَضَانَ: كِتْمَانُ أَسْرَارِهِمْ»، فالصلاةُ أن تعْلَمَ، والصيامُ أن تكتُمَ؛ لأَنَّهُم يقُولُونَ: إن الصَّلاة مِنَ (الصِّلَةِ)، وكُلَّما كان الإنسانُ أقْوى صِلَةً بالشخْصِ كان أدْرَى بأسرارِه، فالصَّلاةُ إذَنْ معرِفَة الأسْرارِ، والصيامُ لُغَةً: (الإمْساكُ)، فكونُكَ تُمسِكُ عن الكلامِ فيما عَلِمْتَ من أسرارِهِمْ هذا هُو الصيامُ.

[٣] قوله: «إِنَّ حَجَّ الْبَيْتِ: السَّفَرُ إِلَى شُيُوخِهِمْ»؛ لأنَّ الحجَّ معناهُ (القَصْد) فيكونُ معْنَى الحجِّ: أن تقْصِدَ المشايخَ فتُسافِرَ إليهِمْ، لا أن تقْصِدَ الكعبَةَ وتَحُجَّ إليها.

وَقَدْ يَقُولُونَ: الشَّرَائِعُ تَلْزَمُ الْعَامَّةَ دُونَ الخَاصَّةِ، فَإِذَا صَارَ الرَّجُلُ مِنْ عَارِفِيهِمْ وَمُحَقِّقِيهِمْ وَمُوَحِّدِيهِمْ رَفَعُوا عَنْهُ الْوَاجِبَاتِ وَأَبَاحُوا لَهُ المَحْظُورَاتِ[١].

وَقَدْ يَدْخُلُ فِي الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى التَّصَوُّفِ وَالسُّلُوكِ مَنْ يَدْخُلُ فِي بَعْضِ هَذِهِ المَذَاهِبِ.

---

[١] يقُولُونَ: الآن وصَلْتَ إلى الغَايَةِ، والعباداتُ والشَّرائعُ إنما هي وسَائلُ، مثلًا عنْدمَا تذْهَبُ مِن هنا إلى الرياضِ تَمْشِي معَ الطَّريقِ، فإذا وصَلْتَ الرياضَ ألقَيتَ العَصَا، وقلتَ: لا حاجَةَ لي في الطَّريقِ الآنَ؛ لأَنَّك وصلْتَ إلى الغايَةِ، هم يقُولُونَ: إذا وصَلْتَ إِلَى هذهِ الغَايَةِ المعيَّنةِ سَقَطَتْ عنْك الواجباتُ وأُبِيحتْ لكَ جميعُ المحظوراتِ، حَتَّى إنهم يجوِّزُونَ للرَّجُلِ أن يتزوَّجَ ابنتَه وأُمَّه -والعياذُ باللهِ-؛ لأَنَّهم يقُولُونَ: ليس هَذَا حَرامًا، يُجوِّزون للرَّجُلِ أن يتَزَوَّجَ مَا شاءَ من النِّسَاءِ.

وقد سَمِعْنَا مِن الحُجَّاج الَّذين يَقْدُمُونَ من إفْرِيقيَا- وما أكثرَ المتصوفَةَ فِيهم- أنَّ بعضَ مشايخِهِمْ يتَزَوَّجُ من بناتِ الحيِّ مَا شاءَ وبدونِ إمْلاكٍ وبدُون مَهْرٍ، وأنَّهم قالوا: عندنا شيخٌ عندَهُ خمْسونَ امرأةً؛ يعني: تَعَدَّى الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، كلُّ هذا- والعياذُ باللهِ- مِنَ الكُفْرِ الصَّريحِ، وكما قَالَ المُؤلِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: «**إِلحَادٌ فِي آيَاتِ اللهِ**»، وإِلَّا مَنِ الَّذي تَسْقُطُ عنْهُ الشَّرائعُ؟ لا تَسقُطُ عن أحدٍ أَبَدًا، فلا تسقُطُ إِلَّا عن إنسانٍ مُسْتكْبِرٍ أسقطَهَا عنْ نفسِه، وأمَّا أن تَسْقُطَ بشرعٍ مِنَ اللهِ فَلا.

ويُذْكَرُ أن عبدَ القادِرِ الجِيلانِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ وهو مِن علماءِ الحنابِلَةِ وهو صوفيٌّ أيضًا، لكنَّ صُوفِيَّتَهُ مُعتدِلَةٌ يقول: إنه رَأى ليلةً مِنَ الليالِي نُورًا، فخوطِبَ من هذا النُّورِ بأنِّي ربُّك، ثم قَالَ: وقد أسقطتُ عنْكَ الصلواتِ، اللهُ يقولُ هكَذا، فلما قَالَ هذا قَالَ لـه:

وَهَؤُلَاءِ الْبَاطِنِيَّةُ هُمُ الْمَلَاحِدَةُ الَّذِينَ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّهُمْ أَكْفَرُ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَمَا يَحْتَجُّ بِهِ عَلَى الْمَلَاحِدَةِ أَهْلُ الْإِيمَانِ وَالإِثْبَاتِ يَحْتَجُّ بِهِ كُلُّ مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الإِيمَانِ وَالإِثْبَاتِ عَلَى مَنْ يُشْرِكُ هَؤُلَاءِ فِي بَعْضِ إِلْحَادِهِمْ[١]، ..

كذبتَ ولكنَّك شيطانٌ، يقول: فلمَّا قُلتُ ذَلِك تبدَّد النُّور ولم أرَ شَيْئًا، وهذا صَحِيحٌ أنَّ الشيطانَ ألقَى هذا الضَّوءَ وتكلَّم بهذا الخِطابِ، وقد يُلْقِي الشيطانُ خطابًا حَتَّى في كلامِ الله ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج:٥٢]، حينئذٍ عَرَف أنَّه لا يُمْكِنُ أن يضَعَ اللهُ عنه الصلوات، والله أعلم.

[١] قصْدُ المُؤلِّفِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن أُناسًا من أهْلِ الإثْبَاتِ يحتجُّون على هؤُلاءِ المُنكِرِينَ لحقائقِ مَا أخبرَ اللهُ به عَنِ اليومِ الآخِرِ بِحُجَجٍ عقْلِيَّة، هذه الحُجَّة الَّتِي يحتَجُّ بها هؤُلاءِ على هـؤُلاءِ، يحتَجُّ بها أهلُ الإثْبَاتِ المُطْلَـق على هؤُلاءِ الَّذين يُثبتونَ بَعضًا وينفُـون بعْضًا.

مثالُ ذَلِك: الأَشَاعِرَةُ والمعتزِلَةُ يُثبِتُونَ حقائقَ مَا أخبرَ اللهُ بِهِ عن اليومِ الآخِرِ، يقُولُونَ: مَا أخبرَ اللهُ به فإنَّه حَقٌّ، ويُوجَدُ يومٌ آخَرُ وثوابٌ وعِقابٌ إلى آخِرِهِ، لكنهم يُنكِرُونَ حقائقَ مَا أخبرَ اللهُ به عن نفسِه، إمَّا إنكارًا كُلِّيًّا كالمعتزِلَةُ، وإما إنكارًا جُزئيًّا كالأَشَاعِرَةِ، مفهومُ هؤُلاءِ الجماعَةِ يحتَجُّونَ على الَّذين يُنكرُونَ حقائقَ اليومِ الآخِرِ مثل الباطنيَّة الَّذين سمَّاهم المؤلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الحَمَوِيَّة»[1] (أهلَ التخْييل)، الَّذِين يقُـولُـونَ هذه الأمـورَ الَّتِي أخبرَ الله بها عنِ اليومِ الآخِرِ خيالٌ ليست حقيقـةً، يحتَجُّـونَ

---

(١) الفتوى الحموية الكبرى (ص: ٢٧٨).

....

عليهم فيقُولُونَ: نحنُ نعلمُ بالاضْطرارِ- عِلْم ضروريّ- أن الرُّسلَ جاءُوا بإِثْباتِ المعادِ حَقِيقةً، هذا أمْرٌ ضَرُورِيٌّ أنَّ الرُّسلَ جاءتْ بهذا، كلُّ الرُّسلِ يُؤمِنُون بذلك، وجَاؤُوا به وأيَّدُوهُ يقُولُونَ: وقد عَلِمْنَا فَسَادَ الشُّبهةِ المانِعَةِ مِنْه، والشبْهَةُ المانِعَةُ مِن المعادِ شُبهةٌ فاسِدَةٌ؛ لأنَّ أقوى مَنِ احتجَّ به من أنكَرَه قَالَ: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٨- ٧٩].

إذن ثَبتَ بالدَّلِيلِ حقيقةُ اليومِ الآخرِ، وانتَفَتِ الشُّبهَةُ المانعَةُ منه بالدَّلِيل، أيضًا إذا وُجدَ الشَّيءُ بالدَّلِيل وانْتَفى مانِعَهُ فالواجِبُ علَيْنا نحوه الإِيمانُ به وإثباتُهُ، هؤُلاءِ احتَجُّوا على الملاحِدةِ الباطِنِيَّة وغيرِهِمْ، احتَجَّ عليهم أهلُ الإثْبَات المُطْلق وهمْ أَهْلُ السُّنَّةِ والجَماعَةِ، وأهلُ الإِثْبَات الجزْئِي مثْلُ الأَشَاعِرَة والمعتزِلَةِ؛ احتَجُّوا على الملاحِدَةِ لإثباتِ اليومِ الآخِرِ بما يحتجُّ به أهْلُ الإِثْبَاتِ المُطْلقِ الَّذين يُثبتُون حقائقَ مَا أخبرَ اللهُ بِه باليومِ الآخرِ، وبما أخْبرَ بِه عن نفسِه، وهم أَهْلُ السُّنَّةِ والجَماعَةِ وهم يحتَجُّونَ به على الأَشَاعِرَةِ والمعتزِلَةِ الَّذين أنْكرُوا حقائقَ مَا أخبرَ الله به عن نفْسِهِ، فيقُولُونَ: نحن نعْلَمُ بالضَّرورَةِ علمًا ضَرُوريًّا أن الرُّسلَ جاءتْ بإثبات صِفَاتِ الكمالِ للهِ.

ونُلاحظُ لو قَارَنَّا بين آياتِ المعادِ وآياتِ الأَسْماءِ والصِّفَاتِ بالقرآنِ لوَجَدْنَا أنَّ آياتِ الأَسْماءِ والصِّفَاتِ في القرآنِ أكثَرُ بكثيرٍ مِنْ آياتِ المعادِ، وكذَلِك أيضًا بالنِّسْبَةِ للكُتُبِ السابِقَةِ كالتَّوراةِ والإنجيلِ في إثباتِ الصِّفَات أكثر منها في إثباتِ المعادِ، بل إنَّهم يقُولُونَ: إنه مَا جاءَ تقريرُ المعادِ وإثباته في كتابٍ أبلَغَ من القُرآن؛ لأنَّه يُخاطِب مَنْ يُنكِرُونَه.

فَإِذَا أَثْبَتَ للهِ تعالى الصِّفَاتِ وَنَفَى عَنْهُ مُمَاثَلَةَ المَخْلُوقاتِ- كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الْآيَاتُ الْبَيِّنَاتُ- كَانَ ذَلِكَ هُوَ الحَقَّ الَّذِي يُوَافِقُ المَعْقُولَ وَالمَنْقُولَ، وَيَهْدِمُ أَسَاسَ الْإِلْحَادِ وَالضَّلَالَاتِ[١].

نقول: قد عُلِمَ بالضَّرورةِ أن الرُّسلَ جاؤوا بإثباتِ صِفَات الكَمالِ لله، وقد عَلِمْنَا فسادَ الشُّبْهةِ المانِعَةِ منه؛ يعني: في إثباتِ الصِّفَاتِ، وعَرَفْنَا أن ذَلِك يقْتَضِي التشْبيهَ والتَّمْثِيلَ وما أشبه ذَلِك.

فإن قِيلَ: هل هذه الشُّبْهَةُ وارِدةٌ أم باطِلَةٌ؟

قُلنا: لا شكَّ أنها باطِلةٌ؛ لأَنَّنا نُثْبِتُ الشَّيءَ بِدون تَشْبيهٍ، كما أَثْبَتُّمْ أنتُمْ أيُّها الأَشَاعِرَةُ والمعتزلَةُ حقائقَ اليومِ الآخرِ بدونِ تَشْبيهٍ، يقُولُونَ: في الجنَّةِ وفي النَّار عِقابٌ وثَوابٌ، لكن لا يُشبه عِقابَ الدُّنيا وثوابَها، بل هو أعظَمُ وأعظمُ بكثيرٍ، فإذن مَا يحتَجُّ به هؤُلاءِ على الملاحِدَةِ يحتَجُّ به أهلُ السُّنَّة على هؤُلاءِ، وقد عِلمْنَا أن الدَّلِيلَ هو نفْسُ الدَّلِيلِ.

فقد عُلم بالضَّرورةِ أن الرُّسلَ جاءت بإثباتِ الصِّفَاتِ للهِ، وأن الشُّبْهَةَ المانعة من ذَلِك فاسِدَةٌ، فيَجِبُ علينا بعدَ ذَلِك القولُ به -كما قُلتُمْ أنتم- بالنِّسْبَةِ للملاحِدة، كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الْآيَاتُ الْبَيِّنَاتُ على مَا في بعض إلحادِهِمْ، مِن إنكارِ حقائقِ صِفَاتِ اللهِ، فهذا مِن الإلحادِ؛ لأنَّ هؤُلاءِ يُنكِرُونَ حقائقَ اليومِ الآخرِ والصِّفَاتِ، وهؤُلاءِ لا يُنْكِرُونَ حقائقَ الصِّفَاتِ دونَ اليوم الآخِرِ.

[١] قوله: «**فَإِذَا أَثْبَتَ للهِ تعالى الصِّفَاتِ وَنَفَى عَنْهُ مُمَاثَلَةَ المَخْلُوقاتِ...**» فإذا أَثْبَتَ للهِ الصِّفَاتِ ونَفَى عنه مماثَلَةَ المَخْلُوقاتِ يَصِيرُ هذا هو الحَقُّ.

وَاللهُ -سُبْحَانَهُ- لَا تُضْرَبُ لَهُ الْأَمْثَالُ الَّتِي فِيهَا مُمَاثَلَةٌ لِخَلْقِهِ؛ فَإِنَّ الله لَا مَثِيلَ لَهُ؛ بَلْ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُشْرَكَ هُوَ وَالْمَخْلُوقاتُ فِي قِيَاسِ تَمْثِيلٍ وَلَا فِي قِيَاسِ شُمُولٍ تَسْتَوِي أَفْرَادُهُ[١]، .....

---

[١] كما قَالَ المُؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا مَثيلَ لهُ، بل للهِ المثلُ الأعْلَى كما قَالَ اللهُ عن نَفْسِهِ: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧]، فلا يُشْرَكُ مع خَلقِهِ في قياسِ تَمْثِيلٍ، ولا في قِياسِ شُمولٍ تستَوِي أفرادُهُ، وهذا مَوْجُودٌ في أصولِ الفِقْهِ؛ قياسُ التَّمْثِيلِ وقياسُ الشُّمولِ.

وباب القياسِ في أصولِ الفِقْهِ هو قياسُ التَّمْثِيلِ بِناءً على قولهم: هذا مِثْلُ هذا، فمثَلا إذا كان الرَّسُولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول: «الْبُرُّ بِالبُرِّ مِثْلًا بِمِثْلٍ سَوَاءً بِسَوَاء يَدًا بِيَدٍ»[(١)]، فنحن نقولُ: الأرز مثل البر، الأرز بالأرز يجب أن يكون مِثلًا بمِثْلٍ، سواءً بسواء، يدًا بيدٍ، هذا نُسَمِّيهِ قياسَ تَمْثِيلٍ؛ لأنَّ كلمة البُرِّ لا تشْمَل الأرُزَّ، لكن الأرُزَّ مثله، فيقَاسُ عليه قياسَ تمْثِيلٍ؛ لأنَّ كلمة البُرِّ لا تشمله.

أما قياسُ الشُّمولِ فمِن باب العامِّ والخاصِّ؛ فاللفْظُ العامُّ تدخُل فيه جميعُ أفرادِهِ، أو جميعُ أنواعِهِ أيضًا على وجهِ قِياسِ الشُّمولِ، وعندنا قاعدَةٌ في العامِّ تقولُ: «العِبرَةُ بعُمومِ اللَّفْظِ لا بخصوصِ السَّببِ»، فإذا وردَ لفظٌ عامٌّ على سببٍ خَاصٍّ قلنا: إنه شامِلٌ لجميعِ أفرادِهِ، فقولُه تعالى﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ [المجادلة:٣]، ووردَتْ في قِصَّةِ رَجل معَيَّنٍ هوُ أوْسُ بنُ الصامِتِ حينما ظاهَرَ من زَوجتِهِ، ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾ نجد أنَّه لفْظٌ عَامٌّ، فهذَا عمومٌ لـزيدٍ وعَمْرو وبكـرٍ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المُسَاقَاة، باب الصرف وبيع الذهب بالورق نقدا، رقم (١٥٨٧).

.....

وخالدٍ ولغَيْرِهم مِمَّن فعَل مثْلَه، والعُموم هنَا قياسُ شُمولٍ؛ لأنَّ ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾ شاملَةٌ لكلِّ الَّذين يقَعُ منْهُم هذا الأمْرُ، فقياسُهُم على أوسِ بنِ الصامتِ قياسُ شُمولٍ؛ لأنَّ اللفظَ تسْتَوِي فيه هذه الأفرادُ، فيسْتَوي فيه أوسُ بن الصامِتِ وزيدٌ وعَمرو وخالد وغيرهم.

وإذا قالَ قائِلٌ: هلِ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُقاسُ بخلقِهِ قياسَ تمثِيلٍ أم قياسَ شمولٍ تستوي أفرادُهُ؟

فالجوَاب: لا هذا ولا هذا؛ لأنَّ ذَلِك نقْصٌ في اللهِ عَزَّوَجَلَّ لو فُرِضَ، ولكن يُسْتَعْمَلُ في حقِّه المثلُ الأعْلَى، وهو أنَّ كلَّ مَا اتَّصف به المَخْلُوقُ مِن كَمَالٍ فالخَالِقُ أوْلى به، والكمالُ نوعانِ:

الأوَّل: كَمالٌ مُطلَقٌ؛ وهَذا هو الَّذي إذا اتّصَفَ به المَخْلُوقُ فلِلْخَالقِ منه الأكْمَلُ.

الثَّاني: كمالٌ نِسْبِيٌّ؛ وهذا لا يلزمُ إذا اتَّصَفَ به المَخْلُوقُ أن يتَّصِفَ به الخَالِقُ.

وعندنا مثلًا كوْنُ الإنسَان يأكُل ويشربُ شُربًا عادِيًّا وينامُ نومًا طَبِيعيًّا، هذا كمالٌ بالنِّسْبَةِ للإنسانِ، وهو كمالٌ نِسْبِيٌّ؛ فالإنسان الَّذِي يأكلُ ويشْرَبُ وينام أكمَلُ مِن الَّذي لا يأكلُ ولا يشْرَبُ ولا ينامُ، لكن لا يُمْكِن أن يُوصَف الله بذلك؛ لأنَّ هذا كمالٌ نِسْبِيٌّ بالنِّسْبَةِ للإنسانِ في هذه الحَيَاة، لكِنْ هُو حقيقةً صِفَةُ نقْصٍ؛ لأنَّ من يحتاجُ إلى الأكلِ والشربِ ولا يقومُ إلَّا بأكْلٍ وشُربٍ ونَوْمٍ ناقصٌ بالنِّسْبَةِ لمن لا يَحْتاجُه ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام:١٤].

وإذا قالَ قائلٌ: النَّومُ كَمالٌ في الإنسانِ، والطعامُ كمالٌ في الإنسانِ، والولدُ كمالٌ في الإنسَان، والزوجةُ كمالٌ في الإنسانِ؟

وَلَكِنْ يُسْتَعْمَلُ فِي حَقِّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى، وَهُوَ أَنَّ كُلَّ مَا اتَّصَفَ بِهِ الْمَخْلُوق مِنْ كَمَالٍ[١] فَالْخَالِق أَوْلَى بِهِ، وَكُلَّ مَا يُنَزَّهُ عَنْهُ الْمَخْلُوقُ مِنْ نَقْصٍ فَالْخَالِق أَوْلَى بِالتَّنْزِيهِ عَنْهُ، فَإِذَا كَانَ الْمَخْلُوق مُنَزَّهًا عَنْ مُمَاثَلَةِ الْمَخْلُوق مَعَ الْمُوَافَقَةِ فِي الِاسْمِ فَالْخَالِقُ أَوْلَى أَنْ يُنَزَّهَ عَنْ مُمَاثَلَةِ الْمَخْلُوقِ، وَإِنْ حَصَلَتْ مُوَافَقَةٌ فِي الِاسْمِ[٢].

وَهَكَذَا الْقَوْلُ فِي الْمَثَلِ الثَّانِي وَهُوَ أَنَّ الرُّوحَ الَّتِي فِينَا- فَإِنَّهَا قَدْ وُصِفَتْ بِصِفَاتِ ثُبُوتِيَّةٍ وَسَلْبِيَّةٍ، وَقَدْ أَخْبَرَتِ النُّصُوصُ أَنَّهَا تَعْرُجُ وَتَصْعَدُ مِنْ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ، وَأَنَّهَا تُقْبَضُ مِن الْبَدَنِ، وَتُسَلُّ مِنْهُ كَمَا تُسَلُّ الشَّعْرَةُ مِن الْعَجِينَةِ.

وَالنَّاسُ مُضْطَرِبُونَ فِيهَا[٣]؛ .....

فنقول له: هذا كمالٌ نِسْبِيٌّ ولَيْسَ كمالًا مُطلقًا، ولكنَّ الكَمَالَ المُطْلَقَ كالحَيَاة والعِلْمِ والقُدْرة والعِزَّة والحِكْمة وما أشبه ذَلِك، كُلُّ شَيْءٍ يُوجدُ في المَخْلُوقِ مِن هذا فللَّه مِنْهُ المَثَلُ الأعلى، ولهذا قَالَ:

[١] «وَهُوَ أَنَّ كُلَّ مَا اتَّصَفَ بِهِ الْمَخْلُوقُ مِنْ كَمَالٍ» أي: كَمَالٍ مُطْلق، لا نقول: كَمَال نِسْبِيٌّ.

[٢] كيف يكونُ المَخْلُوقُ مُنزَّهًا عن مماثلَةِ مخلوقٍ مع المُوافَقَة في الاسْمِ؟

فالجوَاب: الإنسانُ كرَّمهُ الله ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء:٧٠]؛ فالإنسانُ والكلْبُ كِلاهما مخلُوقٌ، ومع ذَلِك فإنَّ الإنسانَ -بلا شَكٍّ- يُنزَّهُ عن أوْصافِ الكلبِ.

[٣] وهذا معروفٌ في الكتابِ والسُّنَّةِ «وَالنَّاسُ مُضْطَرِبُونَ فِيهَا»، مع أنَّ الرُّوحَ في جِسمِكَ، ومع ذَلِك اضطَرَبَ النَّاسُ فيها الاضطِّرابَ الَّذي سيذكُرُه المُؤلِّف وهي مَوْجُودَةٌ في الإنسَانِ، واضطَرَبُوا فيها هذا الاضطِّرابَ؛ لأنَّهُم لا يُشاهِدُونَ حقيقةً،

فَمِنْهُمْ طَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ يَجْعَلُونَهَا جُزْءًا مِن الْبَدَنِ أَوْ صِفَةً مِنْ صِفَاتِهِ، كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ: أَنَّهَا النَّفْسُ أَو الرِّيحُ الَّتِي تَرَدَّدُ فِي الْبَدَنِ. وَقَوْلِ بَعْضِهِمْ: إِنَّهَا الحَيَاةُ أَو المِزَاجُ أَوْ نَفْسُ الْبَدَنِ[١].

وَمِنْهُمْ طَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ الْفَلْسَفَةِ يَصِفُونَهَا بِمَا يَصِفُونَ بِهِ وَاجِبَ الْوُجُودِ عِنْدَهُمْ[٢]، وَهِيَ أُمُورٌ لَا يَتَّصِفُ بِهَا إِلَّا مُمْتَنِعُ الْوُجُودِ فَيَقُولُونَ: لَا هِيَ دَاخِلَةٌ فِي الْبَدَنِ وَلَا خَارِجَةٌ وَلَا مُبَاينَةٌ لَهُ وَلَا مُدَاخِلَةٌ لَهُ وَلَا مُتَحَرِّكَةٌ وَلَا سَاكِنَةٌ، وَلَا تَصْعَدُ وَلَا تَهْبِطُ، وَلَا هِيَ جِسْمٌ وَلَا عَرَضٌ[٣].

وَقَدْ يَقُولُونَ: إِنَّهَا لَا تُدْرِكُ الْأُمُورَ الْمُعَيَّنَةَ وَالحَقَائِقَ الْمَوْجُودَةَ فِي الخَارِجِ، وَإِنَّمَا تُدْرِكُ الْأُمُورَ الْكُلِّيَّةَ الْمُطْلَقَةَ[٤].

فلَيْسَ في الشَّاهِدِ مَا يُشبِهُ تلك الرُّوحَ، ولهذا اضطَرب فيها النُّظَّارُ من المتكلِّمِينَ وغيرهم.

[١] إذن هُمْ إما جُزْءٌ أو صِفَةُ البَدَنِ.

[٢] يقُولُونَ: لا مَوْجُودٌ ولا مَعْدُومٌ، ولا عالِمٌ ولا جاهِلٌ، ولا حَيٌّ ولا ميِّتٌ إلى آخِرِهِ.

[٣] هذه الأوْصافُ السَّلْبيَّةُ كلُّهَا تدُلُّ على أنَّها أمْرٌ لا وُجودَ له؛ يعْنِي لو قلتَ: صِفِ العَدَم مَا وجدتَ أحسنَ من هذا الوَصْفِ، لا هو داخِلَ البدنِ ولا خَارِجَهُ، ولا مبَاينٌ ولا مداخِلٌ، ولا متَحرِّكٌ ولا ساكِنٌ، يعني: سَلْبٌ للنَّقِيضَيْنِ.

[٤] وهذا أيضًا خطأٌ، فلَوْلَا وجودُ النفْسِ في البدنِ مَا أدركَ الإنسانُ شَيْئًا، والإنسانُ يُدْرِكُ الأمورَ الكليَّةَ والأمورَ الجزئيَّةَ كما هو معروفٌ.

وَقَدْ يَقُولُونَ: إِنَّهَا لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ وَلَا مُبَايِنَةً لَهُ وَلَا مُدَاخِلَةً. وَرُبَّمَا قَالُوا: لَيْسَتْ دَاخِلَةً فِي أَجْسَامِ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَةً عَنْهَا[١]، مَعَ تَفْسِيرِهِمْ لِلْجِسْمِ بِمَا لَا يَقْبَلُ الْإِشَارَةَ الحِسِّيَّةَ فَيَصِفُونَهَا بِأَنَّهَا لَا يُمْكِنُ الْإِشَارَةُ إِلَيْهَا وَنَحْوَ ذَلِكَ مِن الصِّفَاتِ السَّلْبِيَّةِ الَّتِي تُلْحِقُهَا بِالمَعْدُومِ وَالْمُمْتَنِعِ[٢].

وَإِذَا قِيلَ لَـهُمْ: إِثْبَاتُ مِثْلِ هَذَا مُمْتَنِعٌ فِي ضَرُورَةِ الْعَقْلِ، قَالُوا: بَلْ هَذَا مُمْكِنٌ بِدَلِيلِ أَنَّ الْكُلِّيَّاتِ مُمْكِنَةٌ مَوْجُودَةٌ، وَهِيَ غَيْرُ مُشَارٍ إِلَيْهَا[٣]، .....

---

[١] كيف لا هِيَ داخِلَةٌ عنه ولا خارِجَةٌ؟

[٢] والسَّببُ في هذا الاضطِّرابِ هو أنَّهم لا يُشَاهِدُونَ لـها نظيرًا في الخارِجِ، ولا يؤمِنونَ بما جاءتْ به النُّصوصُ، والإنسانُ الَّذِي ليْسَ عنْدَه دَلِيلٌ عقْلِيٌّ ولا نقْلِيٌّ ولا حِسِيٌّ، فماذا يصنعُ؟ يرتَدِعُ لا يستطيع أن يخْرُجَ.

[٣] يريدُ بالكلِّيَّاتِ: المعاني العامَّة، كما نقولُ مثلًا عن الإنسَان: يتصوَّر أن هناكَ إنسانيَّةً مُطلَقَةً يشتَرِكُ فيها كلُّ فرْدٍ من النَّاسِ، لكن هل هذه الكليَّةُ المطلقَةُ مَوْجُودَةٌ حقِيقَةً، وهل نجد إنسانيَّة مشاهَدة؟

الجوَاب: لا، لَيْسَت مَوْجُودَةً، ولهذا يَحْكِي عنهُمُ المؤلِّفُ:

«**بَلْ هَذَا مُمْكِنٌ بِدَلِيلِ أَنَّ الْكُلِّيَّاتِ مُمْكِنَةٌ مَوْجُودَةٌ، وَهِيَ غَيْرُ مُشَارٍ إِلَيْهَا**» لا تَصِحُّ، وقد بيَّنتُ مثلًا بالكُلِّيَّاتِ إذا قُلنا: أنَا إنسانٌ وأنْتَ إنسانٌ وهذا إنسانٌ وذاك إنسانٌ، يَتَصَوَّرُ الإنسانُ أو يتَخَيَّلُ أن هُناك كليَّةً عامَّةً مطلقةً تُسَمَّى الإنسانيَّة، اشتَرَكْنا في هذه الإنسانيَّةِ الَّتِي نتَصَوَّرُهَا، وأنَّنا مُشتَرِكون فيها، لكِنْ لا يُشار إليها؛ لأنَّها ليستْ مَوْجُودةً، كـذَلِك الحيوانُ، الإنسـانُ حيوانٌ، والبعـيرُ حيوانٌ، والفَـرَسُ حيوانٌ، والحـمارُ حيوانٌ،

وَقَدْ غَفَلُوا عَنْ كَوْنِ الْكُلِّيَّاتِ لَا تُوجَدُ كُلِّيَّةً إِلَّا فِي الْأَذْهَانِ لَا فِي الْعِيَانِ[١]؛ فَيَعْتَمِدُونَ فِيمَا يَقُولُونَهُ فِي الْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ عَلَى مِثْلِ هَذَا الْخَيَالِ الَّذِي لَا يَخْفَى فَسَادُهُ عَلَى غَالِبِ الْجُهَّالِ.

وهكَذا يتصوَّر الإنسَان أن هُناك حيوانيَّةً مُطلقَةً عامَّةً.

ولهذا يقُولُونَ: الرُّوحُ لا داخلَ العالم ولا خارِجَه، ولا يمكن أن يُشَارَ إليها وأنَّها لشيءٍ ممكن، وحُجَّتُهم أنَّ الكُليَّاتِ ممكِنَةٌ مَوْجُودَةٌ.

[١] هذا صحيحٌ، فهذه الكُليَّاتُ لا تُوجدُ إلَّا في الأَذْهان، الذِّهْن هو الَّذي يفْرِضُ أن هناكَ كُليَّةً عامَّةً اشتَرَكْنا فيه، لكِنْ ليْسَ حقيقةً أنها مَوْجُودةٌ في العَيان نُعَاينُها بأعْيُنِنا.

فيعتَمِدُونَ فيما يقُولُونَه في المبتَدأِ والمعادِ على مِثل هذا الخيالِ الَّذِي لا يَخْفَى فسَادُهُ على غالِبِ الجُهَّال، فصدَقَ رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ الإنسانَ كُلَّمَا توهَّم شَيْئًا أو تخيَّلَ شَيْئًا أثبتَ أنَّه حقيقةٌ، وهذا غيرُ ممكِنٍ، ولا يمكِنُ هذا لأي عاقِلٍ؛ لأنَّك يمكن أن تَتَصَوَّرَ مثلًا جِسمًا رأسُه رأسُ إنسانٍ، ويدُهُ يدُ طيرٍ، ورِجْلُه رِجْلُ بعيرٍ، وبطنُهُ حَجَرٌ، وظهْرُه أُنبوبةُ ماءٍ، فيمكن أن نتَصَوَّرَ هذا، لكنَّه لا يُوجَدُ في الخارِجِ.

فلَيْسَ كلُّ ما فَرَضَهُ الذِّهْنُ أو تصوَّره يمكن أن يقَعَ، فنحن نتَصَوَّرُ أن هُناك حيوانيَّة مُطلقَةً يشتَرِكُ فيها جميعُ الحيوانَاتِ، لكنَّ حقيقةَ الأمْر أنَّه لا وُجودَ لها، وهكَذا هم إذا وَصَفُوا الرُّوحَ بهذه الأوْصاف، وقَالَ: يُمْكِن أنْ يكونَ الشَّيءُ لا داخِلَ العالَمِ ولا خارِجَه، والرُّوح لَيْسَت داخلةً في الأجسامِ ولا خارِجَةً منْها.

نقولُ لهم: هذا إنَّما هو في الذِّهْنِ، أيْ شيءٌ يَفْرِضُه الذِّهن، أما وجودُه في الخارِجِ فأمرٌ غيرُ ممكنٍ، ولَيْسَ كلُّ ما فُرِضَ في الذِّهن يمْكِنُ أن يكون مَوْجُودًا.

.....

ربَّما يَفْرِضُ ذهنُك أنَّ معَ الله إلـهًا آخر، لكنَّ هذا غايةُ المُمْتَنِعِ ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢].

إذَنْ يجب أن نَعْرِفَ أن هذا بلاءُ الفلاسِفَةِ؛ من أنَّهم ظَنُّوا أن المتصوَّرات أُمورٌ واقعَة، وغفَلُوا عن الفرْقِ بينَ الشَّيءِ الَّذي يفْرِضُه الذِّهْنُ الشَّيءِ الَّذي يكونُ حقِيقَةً، فالشَّيء الَّذي يفرضُهُ الذهِنْ يُمكِن أن لا يكونَ حقِيقَةً؛ فالذِّهن يفرِضُ أشياءَ ممكِنَةً ويفْرِض أشياءَ مُمْتَنعَةً، فربَّما يفرِضُ ذهنُك أنَّك فتَحْتَ دكَّانك وبدأتَ تَبيعُ وتشْتَرِي، وصِرْتَ غنيًّا، وهذا يُمْكِن أن يكونَ له وجودٌ، لكنَّ فرضَ جِسْمٍ على مَا وصَفْنَا هذَا لا يُمْكِن أنْ يكُونَ له وجودٌ.

فتَبيَّنَ بهذا أنَّ فرضَ الأذهانِ لا يجوز أن يُحْكَمَ عليه حُكمُ العيانِ؛ لأنَّ فرضَ الأذهانِ قد يكون مَوْجُودًا، وقد يكون مُمْتَنِعا غايَةَ المُمْتَنعات، وقد يكون أيضًا واجبًا مثلَ مَا لو تَصَوَّرْتُم أن المحدَثَ لَا بُدَّ له مِنْ محْدِثٍ، فهذا التصوُّر حقيقةٌ وواجِبٌ.

والأعرابِيُّ البعيدُ عن الثقافَةِ والعِلم، عندما سُئل: بمَ عرفتَ ربك؟ قَالَ بِبَدِيهَتِهِ: «الأثَرُ يَدُلُّ على المسِيرِ»؛ لأنَّ الجَوادَ يُحدِثُ الأثرَ، «والبَعرةُ تدُلُّ على البعيرِ» من بيئتِهِ، «فسماءٌ ذاتُ أبراجٍ، وأرضٌ ذاتُ فِجاجٍ، وبحارٌ ذاتُ أمواجٍ، ألا تُدُلُّ على السَّمِيعِ البَصِيرِ؟»[1].

فأقولُ: إن الذِّهن يفْرِضُ أشياءَ واجبَة، وأشياءَ مُمكنة، وأشياء مُمْتَنعَةً.

(١) تقدم تخريجه (ص:٨٠).

وَاضْطِّرَابُ النُّفَاةِ وَالْمُثْبِتَةِ فِي الرُّوحِ كَثِيرٌ[١].

وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الرُّوحَ -الَّتِي تُسَمَّى بِالنَّفْسِ النَّاطِقَةِ عِنْدَ الْفَلَاسِفَةِ- لَيْسَتْ هِيَ مِنْ جِنْسِ هَذَا الْبَدَنِ وَلَا مِنْ جِنْسِ الْعَنَاصِرِ وَالْمُوَلَّدَاتِ مِنْهَا؛ بَلْ هِيَ مِنْ جِنْسٍ آخَرَ مُخَالِفٍ لِهَذِهِ الْأَجْنَاسِ.

---

[١] تقدم أن المُؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيَّن أن إثباتَ الصِّفَات لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مع عدَم المماثلَة يتبيَّنُ بأصلينِ ومثلَينِ وخاتِمةٍ.

فأمَّا الأصلانِ فهما:

- القولُ في بعضِ الصِّفَات كالقولِ في بعضٍ.
- والقولُ في الصِّفَاتِ كالقَولِ في الذَّاتِ.

أما المثَلانِ المضروبانِ:

المثلُ الأوَّلُ: مَا سبَق في ذِكْرِ مَا بأهلِ الجنَّةِ من النَّعِيمِ الَّذي يُوجَدُ له نظيرٌ في الدُّنيا، لكن هُناك نظِيرٌ له في الاسمِ دُونَ الحقِيقَةِ، فإذا كان يُمكن للمخلُوقاتِ أن تتَّفِقَ في الأسْماءِ مع المباينَةِ في الحقيقةِ، فالمباينَةُ بينِ الخَالِق والمَخْلُوقِ من بابِ أوْلَى؛ يعْنِي: أنَّه إذا كان في الجنَّةِ نخْلٌ ورمَّانٌ وفاكهةٌ وعنِبٌ وغير ذَلِك، فإنَّ في الجنَّةِ كذَلِك، ولكنَّها مختلِفَةٌ عنها في الحقائقِ، وكذَلِك المباينَة بين المَخْلُوق والخَالِق من باب أوْلَى.

والمثل الثَّاني: مسْألة الرُّوحِ، إذْ نعلمُ أن كُلَّ حيٍّ له رُوح وجِسْم، وأن الإنسانَ هو الرُّوحُ والجسمُ؛ فالجِسْمُ هو هذا المشاهَد الَّذي نُشاهِده، ويُوصَف بالطُّولِ والعَرْضِ والسَّوادِ والبياضِ والصحَّة والمرَضِ والحرَكَةِ والسُّكونِ إلى آخرِه، والرُّوحُ هي الحالَةِ في هذا الجسمِ.

فَصَارَ هَؤُلَاءِ لَا يَعْرِفُونَهَا إِلَّا بِالسُّلُوبِ الَّتِي تُوجِبُ مُخَالَفَتَهَا لِلْأَجْسَامِ الْمَشْهُودَةِ، وَأُولَئِكَ يَجْعَلُونَهَا مِنْ جِنْسِ الْأَجْسَامِ الْمَشْهُودَةِ، وَكِلَا الْقَوْلَيْنِ خَطَأٌ.

وَإِطْلَاقُ الْقَوْلِ عَلَيْهَا بِأَنَّهَا جِسْمٌ أَوْ لَيْسَتْ بِجِسْمٍ يَحْتَاجُ إِلَى تَفْصِيلٍ؛ فَإِنَّ لَفْظَ الْجِسْمِ لِلنَّاسِ فِيهِ أَقْوَالٌ مُتَعَدِّدَةٌ اصْطِلَاحِيَّةٌ غَيْرُ مَعْنَاهُ اللُّغَوِيِّ:

فَإِنَّ أَهْلَ اللُّغَةِ يَقُولُونَ: الْجِسْمُ هُوَ الْجَسَدُ وَالْبَدَنُ، وَبِهَذَا الِاعْتِبَارِ فَالرُّوحُ لَيْسَتْ جِسْمًا؛ وَلِهَذَا يَقُولُونَ: الرُّوحُ وَالْجِسْمُ كَمَا قَالَ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون:٤]، وَقَالَ تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة:٢٤٧].

وَأَمَّا أَهْلُ الْكَلَامِ: فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: الْجِسْمُ هُوَ الْمَوْجُودُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: هُوَ الْقَائِمُ بِنَفْسِهِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: هُوَ الْمُرَكَّبُ مِن الْجَوَاهِرِ الْمُفْرَدَةِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: هُوَ الْمُرَكَّبُ مِن الْمَادَّةِ وَالصُّورَةِ.

وَكُلُّ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: إِنَّهُ مُشَارٌ إِلَيْهِ إِشَارَةً حِسِّيَّةً.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: لَيْسَ مُرَكَّبًا مِنْ هَذَا وَلَا مِنْ هَذَا، بَلْ هُوَ مِمَّا يُشَارُ إِلَيْهِ وَيُقَالُ: إِنَّهُ هُنَا أَوْ هُنَاكَ.

فَعَلَى هَذَا إِنْ كَانَتِ الرُّوحُ مِمَّا يُشَارُ إِلَيْهَا وَيَتْبَعُهَا بَصَرُ الْمَيِّتِ، كَمَا قَالَ ﷺ: «إِنَّ الرُّوحَ إِذَا خَرَجَتْ تَبِعَهَا الْبَصَرُ، وَأَنَّهَا تُقْبَضُ وَيُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ»[1] كَانَتِ الرُّوحُ جِسْمًا بِهَذَا الِاصْطِلَاحِ.

(١) أخرجه البزار (٩/ ١٢١، رقم ٣٦٦٩)، والطبرانى فى الأوسط (٨/ ٢٠٥، رقم ٨٤١١).

وَالمَقْصُودُ: أَنَّ الرُّوحَ إِذَا كَانَتْ مَوْجُودَةً حَيَّةً عَالِمَةً قَادِرَةً سَمِيعَةً بَصِيرَةً تَصْعَدُ وَتَنْزِلُ وَتَذْهَبُ وَتَجِيءُ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِن الصِّفَات، وَالْعُقُولُ قَاصِرَةٌ عَنْ تَكْيِيفِهَا وَتَحْدِيدِهَا؛ لِأَنَّهُمْ لَـمْ يُشَاهِدُوا لَـهَا نَظِيرًا.

وَالشَّيْءُ إِنَّمَا تُدْرَكُ حَقِيقَتُهُ بِمُشَاهَدَتِهِ أَوْ مُشَاهَدَةِ نَظِيرِهِ[1]، فَإِذَا كَانَتِ الرُّوحُ مُتَّصِفَةً بِهَذِهِ الصِّفَاتِ مَعَ عَدَمِ مُمَاثَلَتِهَا لِـمَا يُشَاهَدُ مِن المَخْلُوقاتِ، فَالخَالِق أَوْلَى بِمُبَايَنَتِهِ لِمَخْلُوقَاتِهِ مَعَ اتِّصَافِهِ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ.

---

[١] هذه الرُّوحُ اختلف فيها -كما يقولُ المُؤلِّف- النُّظَّار اختلافًا كثيرًا؛ فمِنْهم مَن يقولُ: هي الدَّمُ، ومنْهُم مَن يقول: هي النَّفْسُ.

لكنَّ النُّصوصَ دلَّتْ على أنَّ هذه الروحَ جِسْمٌ من الأجسامِ؛ جِسْمٌ لكن لَيْسَت كأجسامِنَا.

فإن قيل: كيف دَلَّتْ الأدلةُ على أن الرُّوحَ جِسْمٌ؟

قلنا: لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أخبرَ بأنها تُمسَكُ ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر:٤٢]، وأخبرَ أنها تُوفَّى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام:٦١]، وتوفَّى أي تُقبضُ.

وكذَلِك أيضًا في الحديثِ: «أَنَّهَا إِذَا قُبِضَتْ تَبِعَهَا الْبَصَرُ»[1] ومعْنَى تَبِعَها: يرمُقُها، أي: ينظُرُ إِلَيْها، ولهذا تَبْقَى عينُ الميِّتِ مفتوحَةً؛ لأنَّه ينْظُر إلى روحِهِ الَّتِي خَرَجَتْ من جسمِهِ نظرَ عَيانٍ، كما أخبرَ بذَلك النَّبِيُّ ﷺ في الحديثِ لـما دَخَل على أبي سَلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

---

(١) تقدم تخريجه (ص:١٩٠).

وَأَهْلُ الْعُقُولِ هُمْ أَعْجَزُ عَنْ أَنْ يَحُدُّوهُ أَوْ يُكَيِّفُوهُ مِنْهُمْ عَنْ أَنْ يَحُدُّوا الرُّوحَ أَوْ يُكَيِّفُوهَا.

فَإِذَا كَانَ مَنْ نَفَى صِفَاتِ الرُّوحِ جَاحِدًا مُعَطِّلًا لَـهَا وَمَنْ مَثَّلَهَا بِمَا يُشَاهِدُهُ مِنَ الْمَخْلُوقاتِ جَاهِلًا مُمَثِّلًا لَـهَا بِغَيْرِ شَكْلِهَا، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ ثَابِتَةٌ بِحَقِيقَةِ الإِثْبَات مُسْتَحِقَّةٌ لِـمَا لَـهَا مِن الصِّفَاتِ: الخَالِقُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَوْلَى أَنْ يَكُونَ مَنْ نَفَى صِفَاتِهِ جَاحِدًا مُعَطِّلًا، وَمَنْ قَاسَهُ بِخَلْقِهِ جَاهِلًا بِهِ مُمَثِّلًا، وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ثَابِتٌ بِحَقِيقَةِ الإِثْبَات مُسْتَحِقٌّ لِـمَا لَهُ مِن الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ[١].

وهو يُقْبَضُ وقد شخَصَ بصرُه قَالَ: «إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ اتَّبَعَهُ البَصَرُ»، وأخبرَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّها تُكفَّن بكفَنٍ مِنَ الجنَّةِ وحَنُوطٍ من الجنَّةِ، وأنَّه يُصعدُ بها إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ من سماءٍ إلى سماءٍ، ثم ترجِعُ إلى بدَنِها(١).

فكلُّ هذا يَدُلُّ على أنَّها جسْمٌ، ومع ذَلِك لَيْسَت كهذه الأجْسامِ، ولا يعتَرِيها مَا يعتَرِي الجسمَ.

فإذا كان هذا في الرُّوح الَّتِي بين جنُوبِنَا لا نعلم عن كيْفِيَّتِهَا ولا نستطيع أن نعْرِفَ حقيقةَ كُنهِها مع أَنَّنا نؤمِنُ بأنَّها جِسمٌ تُقبَضُ وتُرْسَلُ وتُمسكُ وتُكفَّنُ ويُصعَدُ بها إلى آخِرِه، مع أنها مُبايِنَةٌ لأجْسَامِنا، فالمبايَنَةُ بين الخَالِق والمَخْلُوق من بابِ أوْلَى.

[١] المُؤلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ تعَرَّض هنَا إلى أنَّ الشَّيءَ لا يمكِنُ أن يُعرفَ إِلَّا بمشاهدتِهِ أو مشاهدةِ نظَيرِهِ، ونحن زِدْنا شَيْئًا ثالثًا هو الخبرُ الصَّادِقُ عنه؛ يعني: قَدْ لا تشاهِدُهُ أنتَ ولا تشاهِدُ نظِيرَهُ، ولكن يخبِرُكَ إنسانٌ صادِقٌ بأنَّه شاهدَهُ على هذا الوصفِ.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧، رقم ١٨٥٥٧).

.....

ويمكن أن يرجعَ مسألة الخَبَر الصَّادِق إلى كلامِ المُؤلِّف عَن فرْض مشاهَدتِهِ، يعني: سواء كنْتَ أنتَ المشاهِدَ، أو شاهدَه غيرُك ثمَّ أخبرَك.

إذن لا يمكنُ للإنسانِ أن يعْرِفَ حقيقةَ الشَّيءِ حَتَّى يشاهِدَهُ هو أو يشاهِدَ نظيرَهُ أو يُخبَرَ خبرًا صادقًا عنه، وكلُّ هذا بالنِّسْبَةِ لحقيقةِ ذاتِ اللهِ وصفاتِهِ غيرُ ممكِنٍ؛ فاللهُ تعالى لَيْسَ كمِثله شيءٌ، ولا نظيرَ له، ونحْن لم نشاهدْه، ولو شاهَدْناه مَا أدرَكْناه ﴿لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام:١٠٣].

وهل أَخبَرنا اللهُ تعالى عن حقيقَةِ ذاتِهِ وصفاتِهِ؟

والجوابُ: لا، لم يخبرنا بِذْلَك.

وهل قَالَ إنه استَوى على العرشِ على كيفيَّة كذا وكذا؟

لا، لم يَقُلْ ذلِكَ.

الخَاتِمَة الجَامِعَةُ

وَأَمَّا الخَاتِمَةُ الجَامِعَةُ فَفِيهَا قَوَاعِدُ نَافِعَةٌ[١]:

الْقَاعِدَةُ الأُولَى:

أَنَّ الله -سُبْحَانَهُ- مَوْصُوفٌ بِالإِثْبَاتِ وَالنَّفْيِ، فَالإِثْبَاتُ كَإِخْبَارِهِ بِأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَعَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ وَنَحْوُ ذَلِكَ[٢].

---

[١] قوله: «**وَأَمَّا الخَاتِمَةُ الجَامِعَةُ فَفِيهَا قَوَاعِدُ نَافِعَةٌ**».

والحقيقة أن هذا هو بيتُ القصيدِ كما يَقُولونَ.

هذه قاعِدَةٌ: أن الله موصوفٌ بالإِثْبَاتِ والنَّفْي.

[٢] قوله: «**فَالإِثْبَاتُ كَإِخْبَارِهِ بِأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَعَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ وَنَحْوُ ذَلِكَ**». كلُّ هذا إثباتٌ، ونحن نُثْبِتُ جميع مَا أَثبَتَهُ الله لنفسِه.

ونضيفُ لهذِه القاعِدَةِ -وإنْ كان المؤلِّفُ لم يَذْكُرْها- أنَّ كلَّ مَا أثبتَهُ اللهُ لنفسِهِ فهو صفةُ كَمالٍ، لكنَّ هذا الكمالَ لا يلزمُ أن يكون كمالًا في حَقِّنَا.

فمثلًا من أوْصافِ الله تعالى السَّمْعُ والبصَرُ والعِلْمُ والإرادةُ والقدرةُ، وهي صِفَاتُ إثباتٍ، وهي كمالٌ بالنِّسْبَةِ لنا أيضًا؛ فالإنسانُ الَّذِي يسمَعُ ويُبْصِرُ ويَعْلَمُ ويقدِرُ أكْمَل ممن لَيْسَ كذَلِك، والتكبُّر بالنِّسْبَةِ لله صِفَةُ كمالٍ وبالنِّسْبَةِ لنا صِفةُ نقْصٍ، فليس كلُّ صِفَةِ كمالٍ للخالقِ تكون صِفةَ كمالٍ لنَا.

والنَّفْي كَقَوْلِهِ: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥][١].

وَيَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ النَّفْي لَيْسَ فِيهِ مَدْحٌ وَلَا كَمَالٌ إِلَّا إِذَا تَضَمَّنَ إِثْبَاتًا[٢]، وَإِلَّا فَمُجَرَّدُ النَّفْي لَيْسَ فِيهِ مَدْحٌ وَلَا كَمَالٌ؛ لِأَنَّ النَّفْي المَحْض عَدَمٌ مَحْضٌ؛ وَالعَدَمُ المَحْضُ لَيْسَ بِشَيْءٍ وَمَا لَيْسَ بِشَيْءٍ فَهُوَ كَمَا قِيلَ: لَيْسَ بِشَيْءٍ[٣].

---

[١] قولُه: «والنَّفْي كَقَوْلِهِ: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥]» لا تأخُذُهُ يعْنِي: «لا تَغْلِبه»، وأخَذَنِي النَّوم أي: غَلَبَنِي، فالمَعْنى: لا يمكن أن ينامَ ولا أن يتَّصِفَ بمقدِّماتِ النَّومِ، وهي السِّنَةُ ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾، وفي الحديثِ الصَّحيحِ أن النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «إِنَّ الله لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامُ»[(١)]، أي: لا يصِحُّ ولا يُمْكِن أن ينامَ؛ لأنَّه كلما جاءتْ: «لا ينْبَغِي» في القُرآن والسُّنَّة فالمُرادُ: لا يمكِنُ ولا يستَقِيمُ، ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ ولا ينْبَغِي، فالكلامُ في قاعدة النَّفْي مثلُ مَا ذكَرْنَا قاعدة الإثْبَات، المُؤلِّف ذكَرَ قاعدَةَ النَّفْي، وقلنا في قاعِدَةِ الإثْبَات: كلُّ مَا أثبَتَهُ الله لنفْسِهِ فهو صِفَةُ كمالٍ له.

[٢] يعني: مَا ذَكَرَ اللهُ تعالى من صِفاتِ النَّفْي الَّتِي وصَفَ بِها نفسَه لا يُمكِنُ أن تكونَ مَدْحًا إِلَّا إذا تضَمَّنَتْ إثْباتًا، مَثلًا: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥]، فلا يُمْكِنُ أن نقولَ هذا مَدْحٌ إِلَّا إذا تضَمَّنَتْ الصِّفَةُ إثباتًا، أي: صفَةً ثُبوتِيَّة.

وجه ذَلِك: لأنَّ مُجَرَّدَ النَّفْي لَيْسَ فيه مدْحٌ ولا كَمالٌ؛ لأنَّ النَّفْي المحضَ عدَمٌ محضٌ، يَعْني: مجرد النَّفْي لَيْسَ بِشَيْءٍ فهو عدَمٌ.

[٣] فهو كما قِيلَ أي: مَا لَيْسَ بِشَيْءٍ فهو لَيْسَ بِشَيْءٍ، هذا هو المَعْنى.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إن الله لا ينام»، رقم (١٧٩).